البلاغة القرآنية عند الجاحظ

بقلم د / صلاح محمود على شحاته
الاستاذ المساعد في قسم البلاغة والنقد
في كليـة اللغة العربية بأسـيوط

٠٠ اذا كان « الجاحظ » ـ قد عد ـ (١) مؤسس البلاغة العربية حين افرد لها لاول مرة ـ كتابه الذائع الصيت : « البيان والتبيين » ونثر فيه كثيرا من ملاحظاته ، وملاحظات معـاصريه ، وتعمق وراء عصره (٢) ـ فهما لا ريب فيه ان كتابه : «نظم القرآن » الذى سقط من أيدى الزمن كان شيئا جديدا في تاريخ الدراسـات القرآنية التى سبقته ويتلاءم مع ما منحه ذلك العالم الاديب من مقـدرة باهرة في البيان ، وسعة الاطلاع ، وغزارة المادة ، ورهـافة الذوق ، ونبض الحساسية وقوة الادراك ٠

لان نظره في الآيات القرآنية المبثوثة في كتابيه «البيان والتبيين، والحيوان » تنبىء بأنه كان ينظر في عمق الى ما يشيع في جو النص القرآنى من تأملات بعيدة المدى ، وايحاءات عظيمة الخطر في مجال القول كما سيجىء ٠

---

(١) انظر مقدمة د٠ طه حسـين وعبد الحميد العبادى لكتاب « مقدمة النثر » ط ٠ وازرة المعارف ١٩٣٢ م ٠

(٢) « البلاغة تطور وتاريخ » د٠ شوقى ضـيف ط ٠ دار المعارف ص ٥٨ أولى ٠

ثم اذا علمنا انه الفه للفتح بن خاقان حين طلب اليه أن يؤلف كتابا في القرآن على الرغم من أن « الفتح » كان يريد كتابا في الاحتجاج لخلق القرآن بوجه عام تأكد لدينا اتجاه الكتاب في النظم، وما حول النظم من المعانى القريبة والبعيدة يقول الجاحظ ـ يرد على الفتح بن خاقان ـ :

« فكتبت لك كتابا أجهدت فيه نفسي ، وبلغت فيه اقصي ما يمكن مثلي في الاحتجاج للقرآن ، والرد على الطعان ، فلم أدع فيه مسألة لرافضي ، ولا لحديثي ، ولا لحشوي ، ولا لكافر ديصاد ، ولا لمنافق مقموع ، ولا لاصحاب النظام ولمن نجم بعد النظام ممن يزعم أن القرآن حق ، وليس تأليفه بحجة ، وأنه تنزيل ، وليس ببرهان، ولا دلالة ، فلما ظننت اني بلغت محبتك واتيت على معنى صنعتك، اتاني كتابك يذكر انك لم ترد الاحتجاج لنظم القرآن ، وانما أردت الاحتجاج لخلق القرآن » (١) .

فالجاحظ ـ على حد قوله ـ بلغ فيه اقصي ما يمكن لمثله وان تأليفه ليس بحجة ، وانما هى الصرفة ، حيث صرف الله تعالى قلوب العرب ، وهممهم عن الاتيان بمثله ، مع انهم كان في مقدورهم ان يأتوا ، لو لم يكن حائل الا هى حال بينهم وبين ذلك .

ولعله يشير الى هذا الكتاب بقوله : « ولى كتاب جمعت فيه آيات من القرآن لتعرف فضل الايجاز والحذف ، وفرق بين الزوائد والفضول والاستعارات فاذا قراتها رأيت فضلها في الايجاز، والجمع للمعانى الكثيرة بالالفاظ القليلة على الذى كتبه لك في باب الايجاز، وترك الفضول (٢) . وهو تطبيق لنظرته البلاغية العامة التى

---

(١) الاحتجاج ص ١٤٨ .
(٢) الحيوان : تحقيق عبد السلام هارون ٧٩/٣ .

جاءت في أكثر من موضع في « البيان والتبيين » وهى أن المعـــانى القائمة في صدر العباد ، المتصورة في أذهانهم والمتخلجةفي نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم مستورةخفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة لا يعـــرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه والمعوان له على أموره ، وعلى ما لا يبلغه من حاجات نفسه الابغيره ، وانما تلك المعانى في ذكرهم لها ، واخبارهم عنهـــا ، واستعمالهم اياها • وهذه الخصـــال التى تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفى منها ظاهرا ، والغائب شاهدا والبعيدقريبا ••والدلالة الظاهرة على المعنى الخفى هو البيان الذى سمعت الله تباركوتعالى يمدحه ، يدعو اليه ، ويحث عليه وبذلك نطق القـــرآن ، وبذلك تفاخرت العرب ، وتفاضلت أصناف الاعجام (١) •

فقد يكون « نظم القرآن » من خلال ذلك المنهج البـلاغى الذى بسطه ابو عمرو الجاحظ ورضيه في رسالة بشر بن المعتمـــر التى ذكرها في « البيان والتبيين » (٢) جـــــديدا في تراكيب الآيات ، وما وراءها ، وفي اختيار الالفاظ وما توحى به في التئامها وتناسقها ، وفي طرق التعبير القرآنى من ايجاز الحذفوايجاز القصر ، والاطناب في مجال الاطناب ، وهلم جرا •

يقول الرافعى في كتابه « اعجاز القرآن » (٣) •

---

(١) البيان والتبيين السندوبى جـ ١/٦٨ •
(٢) ص ١٠٤ •
(٣) اعجاز القرآن للرافعى ١٦٩ ـ ١٧١ ط ٧، المكتبة التجارية ، مراجعة محمد سعيد العريان •

« فلما فشت مقالة بعض المعتزلة بأن فصاحة القرآن غير معجزة ، وخيف أن يلتبس ذلك على العامة بالتقليد والعادة ، وعلى الحشوية من أهل الكلام الذين لا رسوخ لهم في اللغة ولا سليقة لهم في الفصاحة ، ولا عرق لهم في البيان مست الحاجة الى بسط القول في فنون من فصاحته ونظمه ، ووجه تأليف الكلام فيه ، فصنف أديبنا الجاحظ المتوفي سنة ٢٥٥ هـ كتابه « نظم القرآن » وهو فيما ارتقى اليه بحثنا أول كتاب أفرد لبعض القول في الاعجاز ، أو فيما يهيىء القول به » ..

ثم يذكر رأى الباقلانى الذى غض فيه من قيمة كتاب الجاحظ حين ذهب (١) الى انه لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله ، ولم يكشف عما يلتبس في اكثر هذا المعنى (أى الابانة عن وجه المعجزة) .

ويعلق عليه بأن الذى دعا الجاحظ الى تأليف « نظم القرآن » في اوائل القرن الثالث هو الذى دعا الباقلانى الى التصنيف في اواخر القرن الرابع ، فلم يحاول الجاحظ اكثر من توكيد القول في الفصاحة والكشف على ما بقى بالابتداء في هذا المعنى ، اذا كان هو الذى ابتداء التأليف فيه ، ولم تكن علوم البلاغة قد وضعت بعد ١٠٠ هـ .

ثم يذهب الى أن الواسطى في ظنه ـ وهو أول من وضع كتابا مبسوطا لشرح الاعجاز ـ حسبما يرى : قد بنى على ما ابتداه الجاحظ ، كما بنى عبد القاهر في « دلائل الاعجاز » على الواسطى .

واذا سلمنا للرافعى بالشطر الاول من العبارة فاننا لا نسلم

---

(١) انظر هذا الرأى فى اعجاز القرآن ص ٦ المقدمة .

له بالشطر الثانى لان عبد القاهر قد بنى في « دلائل الاعجاز » على ما ابتدأه القاضي ابو الحسن النظم بين وجوه الاعجاز في القرآن ٠

ويؤكد ابن الخياط قيمة هذا الكتاب الذى ضـــاع ولم يصـــل لايدينا ضمن ما ضاع من تراث المسلمين بأن الذى يقرا كتاب « نظم القرآن » للجاحظ يعلم أن له في الاســلام غناء عظيما لم يكن الله عز وجل ليضيعه عليه ، ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القـــرآن وعجيب تأليفه ، وانه حجة لمحمد في نبوته غير هذا الكتاب (١) ٠

فاذا أضفنا الى ذلك أن الزمخشرى قد ذكره في مقدمة كتـــابه « الكشاف » ولا بد انه قد افاد منه في نظراته البـــلاغية في الاعجاز البيانى للقرآن وضـــح أمامنا خطر « نظم القرآن » باعتبـــاره حلقة أكثر اتساعا مما جاء في مجاز أبى عبيدة ، ومعانى القرآن للفراء ،وأنه كان بمثابة النبع الهادىء في تاريخ الدراسات القرآنية المتعلقـــة بالاعجاز ، ثم لم يلبث أن تفجرت بعده ينابيع ٠

(أ) الاسلوب القرآنى في « البيان والتبيين » :

السـجع والفاصلة :

يذكر الجاحظ قصة عبد الصمد بن الفضل بن عيسي الرقاشي اذ قيل له : لم تؤثر السجع على المنثور ، وتلزم نفسك القـــوافي واقامة الوزن ؟ فقال : إن كلامى لو كنت لا آمل فيه الا سماع الشـاهد لقل خلافي عليك ، ولكنى أريد الغائب والحاضر ، والراهن والغابر ، فالحفظ اليه أسرع ، والآذان لسماعه أنشط ، وهو إحق بالتقييد ، وبقلة التفلت ، وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت

---

(١) اسرار البيان : كرد على نقلا عن الانتصار ٤٣٩ ٠

به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثر عشره ، ولا ضـــاع من الموزون عشره (١) ٠

وهو يذكر ذلك في معرض حديثه عن الاسجاع في الكلام ، وتفريقه بين السجع المتكلف ، والسجع المطبوع الذى هو ظاهرة من ظـواهر الاسلوب القرآنى ، ويدخل على من طعن في قوله تعالى . « تبت يدا ابى لهب وتب » وزعم انه شعر ، لانه في تقدير : مستفعلن مفاعلن، وطعن في قوله عليه السلام :

هل انت الا اصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت

فيقال له : اعلم انك لو اعترضت أحاديث النـاس وخطبهم ورسائلهم لوجدت فيها مثل : مستفعلن مفاعلن : كثيرا وليس أحد في الارض يجعل ذلك المقدار شعرا ، ومثله قد يتهيـأ في جميـع الـكلام ٠

وفي دفاع الجاحظ عن فضيلة السجع يدرك إدراكا وجـدانيا ما تتسم به الفواصل القرآنية من خاصية موسيقية تتلاءم وسائر المواقف وترتبط ارتباطا نفسيا بالنمـاذج البشرية في القصص القرآنى ، وتعلو حينا ، وتهمس حينا آخر حسبما تتنوع مجـالات التصوير ، وتتعدد ٠

وبتلك النظرة لم يستطع أن يجاريه بعض لاحقيه ممن أفردوا الاعجاز القرآن كتابا او كتبا ضمنوها عصـارة أفكارهم في النظم والتركيب ، كالباقلانى الذى أنكر السـجع ، ومال الى الفاصلة في كتاب الله (٢) ٠

---

(١) البيان والتبيين : السندوبي ج ١/٩٦٤ ٠

(٢) النثر الفنى وأثر الجاحظ فيه للدكتـور عبد الحكيم بليغ : ط الانجلو ص ٩٤ ، ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م ٠

فقد كان الجاحظ ينظر للايات المحكمات بوجـــــدان الاديب ، فيستلهم الذوق ، ويومىء الى البلاغة كفن يستـــتمد قوته من الحس والشـــعور .

ومن ثم يفرق بين نظم القرآن وتأليفه ، ونظم ســـــائر الكلام وتأليفه فليس يعرف فروق النظر ، واختلاف البحث الا من عـــرف القصيد من الزجر (١) ، والمخمس من الاسجاع والمزاوج من المنثور والخطب من الرسائل ، وحتى يعرف العجز العارض الذى يجـــوز ارتفاعه من العجز الذى هو صفة في الذات .

فاذا عرف صنوف التأليف عرف مباينه نظم القرآن لســـائر الكلام ثم لم يكتف بذلك حتى يعرف عجزه ، وعجز أمثاله عن مثله، وأن حكم البشر واحد في العجز الطبيعى ، وأن تفاوتوا في العجـــز العـــارض (٢) .

(ب) **اللفظ القرآنى والتركيب :**

لكل كلمة في القرآن دلالة مع صاحبتهـــا في التركيب ، وهى توحى بمعنى في فقرة غير ما توحى به فقرة ثانية ، فتجىء الآية من خلال هذا الاختيـــار الدقيق للالفاظ نموذجا هندســـيا يحفل بالفكرة العميقة والمعنى البعيد ، ويجىء منفردا بين فنون القول ، فلا يجىء اللفظ في الآية أو الآيات ما دام مؤديا للمعنى ، مشيرا الى الغـــرض بوجه ما ولكنه يجىء اذا كان الموقف يتطلبــــه ولا يتطلب غيره ، كاللحن النشـــاز .

---

(١) يقصد بالزجر : زجر الكاهن .

(٢) العثمانية للجاحظ : تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون : ١٦ـ١٧

لان التركيب ، عملية فنية ذات أبعاد صوتية ونفسيةوتتجاذب ويفتقر اليه ولا يفتقر لما هو دونه ، بحيث اذا حل غيره محله كان فيها المعانى والالفاظ ، وتجيء هذه على قدر تلك ، ولا تزيد ولا تنقص ٠

لقد فطن الجاحظ لتلك الفكرة حين قالَ : « وقد يستخف الناس الفاظا ويستعملونها ، وغيرها احق بذلك منها ، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع الا في موضع العقاب ، أو في موضع الفقر المدقع ، والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ،ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة ، وكذلك ذكر المطر ، لانك لا تجد القرآن يلفظ به الا في موضع الانتقام ، والعامةوأكثر الخاصةلايفصلون بين ذكر المطر ، وذكر الغيث ، ولفظ القرآن الذى عليه نزل أنه اذا ذكر الابصار لم يقل الاسماع ، واذا ذكر سبع سموات لم يقل الارضين ٠ ألا تراه لا يجمع الارض أرضين ، ولا السمع اسماعا ، والجارى على أفواه العامة غير ذلك ، لا يتفقدون من الالفاظ ما هو احق بالذكر واولى بالاستعمال ، وقد زعم بعض القراء انه لم يجد ذكر لفظ النكاح في القرآن الا في موضع التزويج ٠

وفي القرآن معان لا تكاد تفترق مثل : الصلاة والزكاة ، والجوع والخوف والجنة والنار ، والرغبة والرهبة ، والمهاجرين والانصار ، والجن والانس (١) ٠

تلك اللفتة الفنية اتى تدل على روح الاعجاز في النظم ، وما وراءه ، لم يتجاوز بها الاديب الكبير الى الدلالات الثابتةالتىتتمثل هنا في ذكر العلة والسبب ٠

---

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤ ، ٣٥ ٠

وفي مجال التركيب يسرد الجاحظ آيات تصور مواقف للخصومة واللدد و البيان والافصاح ، دون ان يضيف اليها ما يبرز الصورة ، أو يرسم سمات الموقف ٠

فيذكر جميل بلاد الله تعالى في تعليم البيان ، وعظيم نعمته في تقويم اللسان حيث يقول : « الرحمن ، علم القرآن ، خلق الانسان ، علمه البيان » (١) « هذا بيان للناس » (٢) وحيث يمدح القرآن بالبيان والافصاح وحسن التفصيل والابضاح ، وبجودة الافهام ، وحكمة الابلاغ ، ويسميه فرقانا فيقول : « عربى مبين » (٣) وكذلك انزلناه قرآنا عربيا (٤) « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء» (٥) « وكل شيء فصلناه تفصيلا » (٦) ٠

ويكشف أبنية حال قريش في بلاغة المنطق ، ورجاحة الاحلام ، وصحة العقول والعرب وما فيها من الدهاء والمكر ، ومن بلاغة الالسنة ، واللدد عند الخصومة فيقول : « انا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد » (٧) « لتنذر قوما به لدا » (٨) « ويشهد الله على ما في قلبه وهو الد الخصام » (٩) « آلهتنا خير ام هو ما ضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون » (١٠) ٠

---

(١) الرحمن ١ ـ ٤ ٠
(٢) آل عمران ١٣٨ ٠
(٣) الشعراء ١٩٥ ٠
(٤) طه ١١٣ ٠
(٥) النحل ٨٩ ٠
(٦) الاسراء ١٢ ٠
(٧) الأحزاب ١٩ ٠
(٨) مريم ٩٧ ٠
(٩) البقرة ٢٠٤ ٠
(١٠) الزخرف ٥٨ ٠

ويذكر خلابة ألسنتهم واستمالة الاسماع بحسن منطقهم فيقول : « وأن يقولوا تسمع لقولهم » (١) « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا » (٢) ٠

مع قوله : « واذا تولى سعى في الارض ليفسد فيها ، ويهلك الحرث والنسل » (٣) ٠

وفي كل ذلك سمات مرسومة مصورة يوحى بها نظم التعبير ، ويشير اليها عن قرب او بعد ، ولكن أمام الادباء يكتفى بسردها ، دون أن يقف عند آية واحدة منها ، موضحا سر الاعجاز في تركيبه بما وهبه الله من صيقل الذوق ، ولقد كنا ننتظر منه الكثير مما يجلى به روعة النظم ، وخروج معانيه عن طوق الانسان ، ولكن يبدو انه ضمن ذلك كله كتابه المفقود « نظم القرآن » ولم يبق الا تلك الشذرات المنبثة في كتابيه « البيان والتبيين » ، « الحيوان » وبعضها مبعث للنظر والتأمل ودليل على الذوق المرهف ، وبعضها جاء اشارة عابرة تحتاج الى تمحيص وتدقيق ٠

فمن النوع الاول قوله عز وجل : « والارض بعد ذلك دحاها ، واخرج منها ماءها ومرعاها » (٤) ، فجمع بقوله : (أخرج منها ماءها ومرعاها) النجم والشجر والملح والبقطين والبقل والعشب ، فذكر ما يقوم على ساق وما يتفنن وما يتسطح ، وكل ذلك مرعى ٠

---

(١) المنافقون ٤ ٠
(٢) البقرة ٢٠٤ ، ٢٠٥ ٠
(٣) البيان والتبيين ج ١ : ٢٥ ، ٢٦ ٠
(٤) سورة النازعات ٣٠ ـ ٣٣ ٠

ثم قال على النسق : « متاعا لكم ولانعامكم » فجمع بين الشجر والماء والكلأ والماعون كله لان الملح لا يكون الا بالماء ، ولا تكون النار الا من الشجر ، قال تبارك وتعالى : « الذى جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون » (١) .

وقال : « أفرأيتم النار التى تورون أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقربين » (٢) والمرخ العفار والسواس والمراجين وجميع عيدان النار ، وكل عود يقدح على طول الاحتكاك فهو غنى بنفسه ، بالغ للمقوى وغير المقوى ، وحجر المرو يحتاج الى قراعة الحديد ، وهما يحتاجان الى العطبة ثم الى الحطب ، والعيدان هى القادحة وهى المروية ، وهى الحطب ، قال الله عز وجل : « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » والماعون : الماء والنار والكلأ (٣) .

فانظر كيف تجاوز الالفاظ الى ما وراءها مما يرتبط أبلغ ارتباط بها لقد ترك لخواطره العنان ، حيث استلهمت من الايجاز في الآية او الآيتين معانى يطول شرحها ، وليس في طوق البشر بيانها الا اذا أطال في التعبير واسترسل في القول ، فتجىء اقل في الدلالة ، وأقل في حبكة النظم .

« ومن ثم أمكنه ان يطلع على الناس براى في بيان القرآن يتفق وطبيعته وهو محاولة فهمه فهما أدبيا يستجيب فيه للنص ، ولا يقصر بحوثه في الشكل اللغوى والغريب كما فعل اللغويون » (٤) .

---

(١) سورة يس ٨٠ .
(٢) الواقعة ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ .
(٣) البيان والتبيين ج ٣ : ١٨ ـ ١٩ .
(٤) أثر القرآن فى تطور النقد العربى للدكتور زغلول سلام : ١٥ .

(د) اللمحات الفنية حول الآيات في كتاب « الحيوان » :

يطالعنا في مواضع من كتابات الجاحظ قوله يصف القرآن : « في كتابنا المنزل الذى يدلنا على انه أصدق نظمه البديع الذى لا يقدر على مثله العباد » (١) ٠

ولعله يقصد من خلال هذا الوصف ما اكثر من الحديث عنه ، من حسن الصياغة وكمال التركيب ، ودقة تأليف اللفظ ، وهو في القرآن الكريم قمة البيان ٠

ومن هنا نراه يكشف عن الدلالات الدقيقة للايات ، مشيرا في ثنايا هذا الكشف لما فيها من استعارات وتمثيلات وتشبيهات ٠

فيعلق على الآية الكريمة : « ان الذين يأكلون اموال اليتامى ظلما انما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » (٢) بأنها من باب المجاز والتشبيه على شاكلة قوله تعالى «أكالون للسحت» (٣) ٠

يقول : وقد يقال لهم ذلك ، وان شربوا بتلك الاموال الانبذة ، ولبسوا الحلل وركبوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الاكل ، وقد قال الله عز وجل في تمام الآية : « انما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيرا » وهذا مجاز آخر ٠٠٠ وقال عز وجل : « أيحب أحدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا » (٤) ٠ فهذا كله مختلف ، وهذا كله مجاز (٥) ٠

---

(١) الحيوان ط عبد السلام هارون ج ٤ : ٩٠ ٠
(٢) النساء ١٠ ٠
(٣) المائدة ٤٢ ٠
(٤) الحجرات ١٢ ٠
(٥) الحيوان ص ٢٨ وما بعدها ٠

ان الجاحظ يطلق كلمة المجاز على البيان بوجه عام ، قاصدا كل ما عدل به عن معناه الاصلى الى معنى آخر غبه تحوير ومجاز ، دالا عليها والعكس ، ويعلل ذلك بقرب احد اللونين من الآخر ، فيعدل ومثال ذلك كلامه عن الخضرة في اللغة واستعمال العرب للفظ السواد العرب عن الخضرة الى السواد الى الخضرة ، يقول : «اصل الخضرة هو لون الريحان والبقول وجعلوا بعض الحديد اخضر والسماء خضراء حتى سموا بذلك الكحل والليل ٠

وقال الله عز وجل : « ومن دونهما جنتـــان ، فأى آلاء ربكما تكذبان ، مدهامتان » قال : « خضروان ، من ترى سوداوان » (١)٠

وهكذا يبدو أنه لا يريد من الكلمة معناها الاصلى ، عـــلى أن يكون هناك لون من الربط بين المعنى الاصلى والمعنى المجـــازى ، هذا في الآية الاولى « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمـا ٠٠٠ » ، والآية الثانية « أكالون للسحت » ٠

ثم يعلق بما يفيد نظرته الفنية . « وقد يقـال لهم ذلك ، وان شربوا بتلك الاموال الانبذة ولبسوا الحلل ، وركبـــوا الدواب ، ولم ينفقوا منها درهما واحدا في سبيل الاكل ، وهى معان مجازية في كل من الآيتين » ٠

اما الآية الثانية : « ايحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا » فهى تأكيد للبرهان على المجاز في الاكل ، ولم يعلق عليها بأكثر من أن هذا كله مختلف وهذا كله مجاز مع ما في نظمها من ايحـــاءات تثير

---

(١) انظر الحيوان جـ ٣ : ٢٤٥ ــ ٢٤٦ ، وكتاب أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٨٥ ٠

مشاعر الاشمئزاز والسخرية والكراهية من هؤلاء الذين يتيحون لانفسهم أن ينالوا بالتجريح واللذم غيرهم ٠

وتتسع تلك النظرة في كتاب « الحيوان » مع ما يصاحبها أحيانا من ابراز ملامح الصورة التى تنسج خيوطها الآتية ، وتبرز قوة الانسجام بين أجزائها في احكام وتلاؤم اسمعه يقول في قوله تعالى: « انها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين » (١) ٠

وليس ان الناس راوا شيطانا قط على صورة ، ولكن لما كان الله تعالى قد جعل في طباع جميع الامم استقباح جميع صور الشياطين، واستسماجه وكراته وأجرى على السنة جميعهم ضرب المثل في ذلك رجع بالايحاش والتنفير وبالاضافة والتقريع الى ما قد جعله الله في طباع الاولين والآخرين وعند جميع الامم ، على خلاف ـ اختلاف ـ جميع الامم (٢) ٠

فانظر لتلك الصورة التخييلية التى تتحرك من خلال أجزاء التركيب والتى تنسق لابرازها الكلمات ، والكلمات ، ما بين واضح مثل : أصل الجحيم وهو قعر جهنم ومبهم مثل : رؤوس الشياطين ، وكل من هذا وذاك يوحى بالرعب والخوف ٠

وليت ابا عثمان قد أكمل صورة التنفير والاضافة والتقريع فذكر الآيات « فانهم لآكلون منها ، فمالئون منها البطون ، ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم » لتزداد الصورة المتخيلة نبضا في مجال الحس والمادة ويتمثل الرعب والخوف متموجا في احداق المكابرين

---

(١) الدخان : ٤٩ ٠

(٢) الحيوان : ج ٤ : ٣٩ ، ج ٦ : ٢١١ ٠

والمعتدين من الكفار ، وعلى كل حال فقد كان لفوقه اثر واضح في تناول الآيات التى يتأملها وهو يضيف بابا آخر في مجاز الذوق : وهو قول الرجل اذا بالغ في عقوبة عبده : ذق ، وكيف ذقته ؟ وكيف وجدت طعمه ؟

وقال عز وجل : « ذق انك أنت العزيز الكريم » (١) ...

وان الله ذاق حلوم قيس
فلما ذاق خفتها قلاها
رآها لا تطيع لها أميرا
فحلاها تردد في خلاها

فزعم أن الله عز وجل يذوق ... وللعرب أقدام على الكلام ، ثقة بفهم أصحابهم عنهم ، وهذه فضيلة ...

وكما جوزوا لقولهم : « اكل » وانما عض ، واكل وانما افنى واكل وانما أحاله وأكل وانما أبطل عينه - جوزوا أيضا ان يقولوا : ذقت ما ليس بطعم ، ثم قالوا طعمت بغير الطعام ، وقال العرجى :

وان شئت حرمت النساء سواكم وان شئت لم اطعم نقاخا ولا بردا

وقال الله تعالى : « ان الله مبتليكم بنهر ، فمن شرب منه فليس منى ، ومن لم يطعمه فانه منى » يريد : « لم يذق طعمه » (٢) .

وهو ادراك جديد للربط بين معنيين بينهما علاقة ما ، ثم اتساع في مفهوم الدلالة الواحدة التى تكون تارة حسية ، ومعنوية تارة

---

(١) سورة الصافات : ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ .
(٢) الحيوان : جـ ٥ : ٢٥ ، ٣١ ، ٣٢ .

أخرى ، فذوق الضرب والعقوبة غير ذوق الحلوم والخفة ، وبينهما من العلاقات والروابط ما يؤدى الى احكام المعنى . اذ كلاهما يتعلق بالانسان ، سواء في ظاهره الذى يتصل بالحواس ، أو في باطنه الذى يتصل بالصفات المختلفة .

« ان تلك النظرة البيانية قد حلت كثيرا من المشكلات التى قامت بسبب التعبيرات القديمة ، فقد انكر المنكرون قول القائل : طلع سهيل ، أو برد الليل » وقالوا في انكارهم : « ان سهيلا لم يأت بحر ولا برد ، وكره مالك بن أنس ان يقول الرجل عن الغيم والسحاب :ما أخلقها للمطر » .

ولكن الجاحظ يرى ان اخراجه على وجه المجاز يحل المشكلة ، ويقيم الكلام على وجه سليم ، فهو يقول عن التعبير الاول : ولهذا الكلام مجاز ومذهب وهو يقول عن التعبير الثانى : وهذا كلام مجازه قائم .

وهو في ذلك كله قد قاس هذه العبارات على نظائرها في كلام العرب فوجد لها دعامة من الصحة ، وسندا من القياس السماعى الصحيح ، فان العرب من قديم تقول : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم ، والشاعر العربى يقول :

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

ولكن المنكرين انكروا لمعنى دينى قائم في نفوسهم ، وهو اسناد الافعال جميعها الى الله تعالى ، وتنزيها له عن أن يشركه غيره في فعل ، أو يشاركه في خلق فاحتج لهم بشواهد من اللغة تجيز ماذهبوا اليه من الاستعمال (١) .

---

(١) مقدمة تلخيص البيان للشريف الرضى للأستاذ محمد عبد الغنى حسن ص ١١ ، ١٢ .

فلم يكن المجاز في الآيات القرآنية مجرد خاطر بخطرلهذا العالم الكبير ولا مجرد قواعد جافة تخضع للتعريفات والحدود المنطقية وانما كان لمسة من لمسات الذوق في بعض الآيات باعتبار معانيها البلاغية وباعتبار ما يثيره التركيب من لمحات نفسية في بعض المواقف ٠

ومن ثم فهو يؤكد ايمانه بالاعجاز البلاغى عن طريق استدلاله على صحة ما يذهب اليه من قيمة المجاز الفنية ، سواء كان ذلك من الشعر ، أو من أقوال العرب المأثورة ، ونحن لا نشك في ان تلك اللفتات البيانية الوجيزة كانت الاساس الذى بنى عليه ضرح البيان العربى من بعد ، وان تطبيقه على المجاز والتشبيه والاستعارة في القرآن قد أفاد دارسيه خيرا من تقنين القوانين وتقعيد القواعد في البلاغة العربية ٠

وفي باب التشبيه والبدل يورد قول الله تعالى : « ان اصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » (١) وأصحاب الجنة لا يوصفون بالشغل ، وانما ذلك جواب لقول القائل : خبرنى عن أهل الجنة بأى شيء يتشاغلون ؟ أم لهم فراغ ابدا ، فيقول المجيب : لا ماشغلهم الا في افتضاض الابكار ، وأكل فواكه الجنة ، وزيارة الاخوي ان على عجائب الياقوت ، وهذا على مثال جواب عامر بن عبد القيس حين قيل له ، وقد اقبل من جهة الحلبة وهو بالشام - من سبق ؟ قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيل : فمن صلى ؟ قال : ابو بكر ، قال : انما اسألك عن الخيل ، قال : وأنا أجيبك عن الخير ، وهو كقول احد المفسرين حين سئل عن قوله تعالى : (٢) « لهم رزقهم » فيها

---

(١) سورة يس : ٥٥ ٠

(٢) مريم ٦٢ ٠

بكرة وعشيا » ليس فيها بكرة وعشي ، وقد صدق القرآن ، وصدق المفسر ولم يتناكرا ، ولم يتنافيا ، لان القرآن ذهب الى المقادير ، والمفسر ذهب الى الموجود من دوران ذلك مع غروب الشمس وطلوعها ، وعلى تأويل قوله تعالى : « هذا نزلهم يوم الدين » (١) قال « جهنم يصلونها فبئس المهاد » (٢) قال تعالى : « حتى اذا جاءوها فتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين » (٣) .

فجعل للنار خزائن ، وجعل لها خزنة ، كما جعل في الجنة خزائن وجعل لها خزنة ، ولو ان جهنم فتحت ابوابها ، ونحى عنها الخزنة ، ثم قيل لكل لص في الارض ، ولكن خائن في الارض دونك فقد أبيحت لك ما دنا منها ، وقد جعل لها خزائن وخزنة ، وانما هذا على مثال ما ذكرنا ، وهذا كثير في كلام العرب (٤) .

وهذه كلها صور لبعض أحوال اليوم الآخر ، يتضح فيها المجاز الذى هو قسيم الحقيقة ، وقد نظر الجاحظ الى كل منها نظرة ادبية تدل على التمرس الطويل بكلام العرب البلغاء ، وعلى الذوق الاصيل بوجوه تركيب الكلام .

« واستعماله لكلمتى الحقيقة والمجاز « في الحيوان » يدخل في استعمال البلاغيين المتأخرين ، فقد استعملها بمعناها الدقيق ،

---

(١) الواقعة : ٥٦ .
(٢) ص ٥٦ .
(٣) الزمر : ٧١ .
(٤) الحيوان جـ ٤ : ٢٧٨ .

ولعل في ذلك ما يدل على ان ابن تيمية اخطأه التوفيق حين زعم ان تقسيم اللفظ الى حقيقة ومجاز حادث بعد القرون الثلاثة الاولى للهجرة ، اما ما رجحه من ان حدوث هذا التقسيم كان من جهة المعتزلة فهو صحيح الى أبعد غاية » (١) .

ومع تبلور هذا المفهوم للمجاز في ذهن الجاحظ فقد كان أميل الى التجريد في مشاهد القيامة والجنة والنار ، وصفات العذاب والنعيم ، واحوال اليوم الآخر ، فالصورة عنده ليست شكلا ظاهريا ، أو دلالة مادية بقدر ما هي معنى وراء الشكل أو الصورة ، فلم يكن ينظر للاية القرآنية نظرة مباشرة تستهدف معرفة اللغويات في التعبير ، وانما كانت غير مباشرة ، تستهدف ما حول التعبير ، حتى ان مفهوم العدد عنده في القرآن ولا يحمل معنى التحديد « الكمي » بل يقصد الى التعدد والكثرة .

قال ـ وقد اعترض معترضون على قوله عز وجل : « واتل عليهم (٢) نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد الى الارض ، واتبع هواه ، فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث ، او تتركه يلهث ـ ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

« فزعموا أن هذا المثال لا يجوز أن يضرب لهذا المذكور في صدر هذا الكلام لانه قال : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ للدكتور شوقي ضيف ص ٥٦ ، وانظر كتاب الايمان لابن تيمية ص ٣٤ .

(٢) الأعراف ١٧٥ ـ ١٧٦ .

فما يشبه حال من أعطى شيئا فلم يقبله - ولم يذكر غير ذلك - بالكلب الذى ان حملت عليه نبح ، وولى ذاهبا ، وان تركته شد عليك ونبح ، مع أن قوله يلهث لم يقع في موضعه ، وانما يلهث الكلب من عطش شديد وحر شديد ، ومن تعب ، وأما النباح والصياح فمن شيء آخر ٠

قلنا له : ان قال : (ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا) فقد يستقيم أن يكون الرد لا يسمى مكذبا ، ولا يقال لهم كذبوا الا وقد كان ذلك منهم مرارا فان لم يكن ذلك فليس ببعيد أن يشبه الذى أوتى الآيات والاعاجيب والبرهانات والكرامات في بدء حرصه عليها ، وطلبه لها بالكلب في حرصه وطلبه ، فان الكلب يعطى الجد والجهد من نفسه في كل حالة من الحالات وشبه رفضه ، وقذفه لها من يديه ورده لها بعد الحرص عليها وفرط الرغبة بالكلب اذا رجع ينبح بعد اطراده له ٠

والكلب اذا أتعب نفسه في شدة النباح مقبلا عليك ، ومدبرا عنك لهث واعتراه ما يعتريه عند التعب والعطش (١) ٠

لقد كشف الجاحظ عن الروعة النفسية في التشبيه في دقة محكمة فالمشبه هو الذى أوتى الآيات والدلالات والبرهانات - وكان اكثر ما يكون حرصا عليها - فاتبعه الشيطان ،فانسلخ منها - ففى الكلام تقديم وتأخير يدل عليه المقام ، ومعنى انسلخ : تحول عنها بقهر وانتزاع وارغام ، فهو في حيرة من أمره ، ايسلم نفسه للشيطان ، ويخلد الى الارض ، أم يعود سيرته الاولى حرصا على الحق والنور؟ ٠

---

(١) الحيوان جـ ٢ : ١٦ - ١٧ ٠

كل تلك الملامح النفسية في صورة واضحة ابلغ الوضوح في صورة المشبه به ، فالكلب يطلب في حرص دائم على الطلب ، لفرط الرغبة ، ويبذل الجهد الجهيد ، ليصل الى الغرض ، فاذا قدم له شيء نافع من طعام أو ماء أقبل في شغف ، فاذا رد عنه أدبر في شغف للاقبال ، ووقع في الحيرة ، ونبح قليلا ولهث كثيرا ، مقبلا عليك ، ومدبرا عنك ، وكذلك من ادبر عن آيات الله على ان صورة المشبه به فيها من التحقير ما هو سمة من سمات الصورة في المشبه .

والجهد في استخراج وجه الشبه من التشبيه السابق واضح للعيان (١) ، ليجعله الجاحظ سهلا في متناول العقول ، فلا تكون لهم حجة على بيان القرآن وما ادعى عليه من اضطراب في الصورة البيانية ـ كما ادعى من تولى الجاحظ الرد عليه وقد تنبه الى دقة القرآن في التشبيه بالخصائص المشهورة للمشبه به ، وحاول ـ موفقا ـ أن يكشف عن بعض ما وقع فيه الناس من غموض دعا الى ليتساءل عن وجه الشبه .

وهذا المثال من الشواهد الكثيرة على ما كان للقرآن من أثر في التنبيه على فنون القول في القرآن والادب او البيان عامة .

ويعود الجاحظ في الجزء السادس عن الحيوان لصورة التشبيه المتخيلة المعنوية في قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤس الشياطين » فيقول :

« فزعم ان رؤس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن لها

---

(١) أثر القرآن في تطور النقد العربي ص ٨٨ ـ ٨٩ .

منظر كريه والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا : ما عنى الا رؤوس الشياطين المعروفين بهذا الاسم من فسقة الجن ومردتهم ، فقال اهل الطعن والخلاف ليس يجوز ان يضرب المثل بشيء لم نره ، فنتوهمه ، ولا وصفت لنا صورته في كتاب ناطق ، او خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على ان التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى انه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون الشأن كذلك والناس لا يفزعون الا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، او صورة لهم واصف صدوق اللسان بليغ في الوصف . ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق .

قلنا : وان كنا نحن لم نر شيطانا قط ولا صور رءوسها لنا صادق بيده ، ففي اجماعهم على ضرب المثل بقبح الشيطان ، حتى صاروا يضعون ذلك في مكانين احدهما ان يقولوا : لهم أقبح من الشيطان . والوجه الاخر ان يسمى الجميل شيطانا على جهة التطير له ، كما تسمى الفرس الكريمة شوهاء ، والمرأة الجميلة صهباء وقرناء ، وخنساء ، وجرباء . وأشباه ذلك على جهة التطير له .

ففي اجماع المسلمين والعرب . وكل من لقيناه على ضرب المثل بقبح الشيطان دليل على أنه في الحقيقة اقبح من كل قبيح (١) .

انه يقف في حصافة راى ، مدافعا عن صورة استقباح الشيطان في جدل العالم واحساس الاديب ، مفصلا تصرف الاسلوب القرآني في المشبه به ، ووجه الشبه ينتزع من متخيل معنوى غير مدرك بالحس اعتمادا على ثبوته في الادراك عن طريق العادة والعرف وشيوعه على الالسنة ، وفي الاستعمال وهو يقصد الى اثارة الوجدان

---

(١) الحيوان ج ٦ ص ٢١٠ ـ ٢١١ .

عن طريق تصور الخيال صورة مفزعة بشعة تؤدى الى بث الرعب والفزع في الشعور ، وهذا هو المعنى الذى يفهم من اسلوب التشبيه بوجه عام ..

ويقول الدكتور زغلول سلام : -

« ... وقد اجاز الجاحظ مثل هذا التشبيه ، وبين وجهته ، وناقش آراء غيره في التشبيه من حيث ضرورة الاعتماد على الحس البصرى في تصوير المعنى في الذهن ، ومنذ ذلك العهد او قبله بقليل اهتم الناس بهذين النوعين من التشبيه ، وتابعوهما في القرآن ، وفي البيان عامة ، ودارت بحوث التشبيه في البلاغة حول هذه النقطة ، وتفرعت من هذين النوعين انواع اخرى » (١) .

هذا ... وخلاصة ما يمكن لنا أن نقرره بعد هذا الذى سقناه من الشواهد والنماذج القرآنية التى رأيناها متناثرة في كتب الجاحظ هى :

أولا : ان الجاحظ كان ينظر للاسلوب القرآنى نظرة عقلية مجردة تتأثر بذوقه الخاص وباحساسه ، فهى نظرة ذهنية فنية في أساسها ...

ثانيا : لم تكون تلك النظرة للاسلوب القرآنى قاعدة عامة تندرج تحتها هذه اللمحات الفنية ، وتنبض في نطاقها كدليل على صحتها بمعنى انها تفتقر الى الوحدة العضوية بين أجزائها المتعددة ، فهى شذرات متناثرة هنا وهناك من غير ترابط ولا اتساق .

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى د. زغلول سلام ص ٩٠ .

ثالثا : نظر الجاحظ للاسلوب القرآنى نظرة جادة متأنية من حيث النظم والتركيب ففتحت هذه النظرة الباب واسعا لدراسات على جانب كبير من الاهمية في اساليب القرآن بالرغم من ان هذه النظرة كانت جزئية ، الا انها ذات بال حول ما يتعلق بقضية الاعجاز القرآنى ..

رابعا : لم تكن الدلالات البلاغية في دراسات الجاحظ القرآنية مقصورة لذاتها لتكون نظرية عامة ، وانما كانت انسيابا تأثريا يفيض في بعض المواقف دون بعض ، ـ وعلى أية حال ـ فقد كانت حلقة مبكرة في هذه الدراسات لها قيمتها الكبيرة وتأثيرها العميق..

د٠/صلاح محمود على شحاته
الأستاذ المساعد للبلاغة والنقد
كلية اللغة العربية

محتـــويات العـــدد

صفحة

تقـــديم واهـــداء
بقلم الدكتور مصطفى محمود يونس عميد الكلية ٣

الواحظ بين المعرفة والتأليف
د٠ مصطفى محمود يونس ٥

العقد الفريد لابن عبد ربه الاندلسي
د٠ احمد احمد منصور نفادى ١٧

الملحمة في الشعر العربى
د٠ عبد اللاه محمود محروس ٣٦

مسرحية مجنون ليلى (دراسة وتحليل)
د٠ حمدان عبد الرحمن احمد ٥٧

الثقافة في شعر حافظ ابراهيم
د٠ زهران محمد جبر ٨٣

ابن السراج البغدادى ونظرات في تراثه الادبى
د٠ على محمد طلب ١٢١

ابن زيدون (حياته وأدبه)
د٠ عبد الرحمن حسين محمد ١٦٥

ادوات التنبيه
د٠ حسين البدرى ١٨٩

مع الاساطيل الاسلامية في قبرص
د٠ عبد الرازق الطنطاوى المرموط ٣٠٢
أبو جعفر المنصور والحاكم بأمر الله
د٠ محمود شرف الدين ٣٤٠
العاطفة الدينية وأثرها في البحث اللغوى العربى
د٠ عيد محمد الطيب ٣٦٣
التعادل وأثره في النحو العربى
د٠ دردير محمد أبو السعود ٣٩٤
الملامح البلاغية والنقدية في كتاب العمدة
د٠ عبد الفتاح محمد سلامة ٣١٥
البلاغة القرآنية عند الجاحظ
د٠ صلاح محمود علي شحاته ٣٢٨